

الفصل الرابع: الأمويون والفصل بين العلماء والحكام

١) مقدمة: قيام الدولة الأموية

إن بني أمية كانوا في الجاهلية من أغنى أسر قريش وأكبرها وكان لهم الرئاسة العسكرية والسياسية. فلما جاء الإسلام كانوا من أكثر الناس كراهية واستنكافا له لأنهم أرادوا أن يحافظوا على منزلتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية وسيادتهم السياسية، ثم كفوا عن معارضتهم له ولأتباعه وأسلموا يوم فتح مكة. فعفا الرسول صلى الله عليه وسلم عما سلف منهم من الأعمال الشريرة وولاهم بعض الأعمال، ثم شاركوا في فتوح الشام فكانوا من قادتها، ومن أبلى فيها بلاء حسنا معاوية بن أبي سفيان^١ واستعمله عمر بن الخطاب على جند دمشق بعد موت أخيه يزيد (ت18هـ/639م)، ومنذ ذلك الوقت بدأت مكانتهم ترتفع بالتدريج.^٢

فلما استخلف عثمان بن عفان قرب أقربائه منه، فولاهم على الأمصار^٣، فاستغلوا قرابته وشيخوخته حتى استعادوا سيادتهم التي فقدوها في أول الإسلام. ولم يكن من السهل أن يتنازلوا عن نفوذهم بعد اغتيال عثمان، فناهضوا علي بن أبي طالب ولم يزل

^١ تاريخ يعقوب ج2 ص161.

^٢ إن معاوية أسلم مع أخيه وأبيه عام فتح مكة قبل وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو ثلاث سنين. وقد أسلم مع آخرين ممن كانوا قبل إسلامهم محاربين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم حسن إسلامهم بعد الفتح. وحسن إسلام معاوية أيضا بالإضافة إلى أنه لم يعرف تاريخيا له قبل إسلامه أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يده ولا لسانه إذ كان حين بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صبغيا. وقال ابن تيمية عنه: "ولو لا محاربه لعلي رضي الله تعالى عنه وتولية الملك لم يذكره أحد إلا بغير". وشهد مسع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عدة غزوات كحنين والطائف وتبوك. (أنظر: الدكتور مصطفى حلمي: نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعه ص273، دار الدعوة، الإسكندرية، 1988م)

^٣ أنظر مروج الذهب ج2 ص343-347، تاريخ يعقوب ج2 ص165-166، شذرات الذهب ج1 ص36.

معاوية يناهضه حتى قتل. فاستقرّ الحكم في يد معاوية بعد تنازل الحسن بن علي عنه وبعد عام الجماعة، وتوسعت في أيامه منافع الأمويين المادية وعظمت مكانتهم، وكان من المستبعد أن ترد هذه الطبقة الخلافة إلى الأمة لترى رأيها فيها وتختار من يصلح لها عن مشورة واتفق منها، لأن ذلك كان يعني أن يتخلى الأمويون عن الحكم بعد أن قاتلوا قتالا طويلا لأجله.⁴ وتحول نظام الخلافة منذ ذلك الوقت إلى ما يشبه نظام الملكية القائم على التوريث مع تمسك شكلي بفكرة الشورى والبيعة التقليدية والتزام سطحي بمعاني الخلافة كما فهمها المسلمون الأوائل.

لقد لاحظ ابن خلدون هذه الظاهرة الطارئة على المجتمع الإسلامي وسعى إلى تحليلها تحليلا دقيقا ليأتي بمدى التغيير الفعلي الذي حدث، فقرر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك فإن معاني الخلافة قد بقيت، وإنما التغيير كان فقط في الوازع، فبعد أن كانت دينا انقلب عصبية وسيفا، يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستندا إلى العصبية والقوة، ولكن مقاصد الخلافة وأهدافها بقيت، أي أن غايات هذا الملك كانت لا تزال تحقيق مقاصد الدين، وفي هذا يقول:

" وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات. فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس أنه لله، ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه- لم يكن ذلك مذموما".⁵

وقد كان طبيعيا أن يسبب هذا الانقلاب، الذي أصبح واقعيًا فعليًا باستقرار السلطة في أيدي الأمويين، نشأة الانشقاق في ساحة القيادة الإسلامية إلى نوعين: القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي مصالحتها وتوجيهاتها لأول مرة في التاريخ الإسلامي أخذت تتباين وتتفاوت، بل أكاد أقول تتضاد. أما الحكام أو القيادة السياسية فقد أدركت من

⁴ عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص 26، دار الطليعة، بيروت، 1969م.

⁵ المقدمة ص 203.

أول لحظة خطيرة موقعها الاجتماعي وفي الوقت نفسه مطامحها السياسية، ولذا حاولت بكل السبل أن تستر وتبرر ماضيها وبعض ملامح تصرفاتها الحالية في عملية توطيد سلطتها واجتذاب تعضيد الناس إياها. ومن ناحية أخرى، نرى العلماء أو القيادة الفكرية التي قوت صفورها وموقعها الاجتماعي في مقابل السلطة، وكان في مقدمة اهتمامها وقاية كمال واستقامة العقيدة، وفاعلية الاجتهاد، وصيانة التعليمات الإسلامية الخالصة من المحجمات المختلفة. إن الصراع بين المجموعتين صار محتما إذ لجأ الحكام إلى إخضاع العلماء لرغباتهم ومآربهم، في حين أن العلماء قد كافحوا لأجل استقلالهم وإدامة مشروعيتهم الدينية.

(2) الأمويون والخلافة

لقد أدرك الأمويون منذ أطوار دولتهم الأولى أن ما أشاعوه من أنهم استحقوا الخلافة دون غيرهم من المسلمين لأجل قربانهم من عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لا يمكن أن يصير نظرية مقنعة ومقبولة لدى الناس. وذلك لأن ما أذاعوه كان أضعف من أن يقابل نظريات الفئات المعارضة⁶ لهم في الخلافة مثل نظرية الشورى المقيدة عند الجماعة، لأنهم قيدوا الخلافة في قريش لا تخرج منهم، ونظرية الشورى المطلقة عند الخوارج، لأنهم أزالوا شرط النسب وجعلوا الخلافة للأكفاء من الأمة الإسلامية مهما كانوا طالما تتوفر فيهم سائر الشروط، ونظرية وراثية الخلافة عن الرسول وتقييده في أهل البيت عند الشيعة.⁷ لقد

⁶ أثناء التوترات السياسية التي عصمت اغتيال الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ثم من بعده الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب نشأت ثلاث تيارات رئيسية، أو وضعت حدودها، في ميدان السياسة أو ميدان الصراع على الحكم، هم: (1) الجماعة، أو المسلمون الذين كانوا لا يزالون يتشفعون للخلافة الراشدة، ورأوا اختيار الخليفة الشورى بين المسلمين والأئمة من قريش. (2) الخوارج الذين رأوا اختيار الخليفة الشورى المطلقة بين المسلمين دون اشتراط القرشية، ويمكن أن يكون إماما للمسلمين أي امرئ مسلم تتوفر فيه سائر الشروط. (3) الشيعة الذين عدوا الخلافة أو الإمامة ركن الإسلام وقاعدته ولا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل بحسب عليه تعيين الإمام لهم. والإمام معصوم من الكبائر والصغائر. وقد عين النبي عليا إماما بعده وجميع الأئمة لا بد أن يكونوا من نسل علي بن أبي طالب. وبعد نشأة الدولة الأموية تولد تيار رابع كان أحيانا يسمى بالتيار الأموي. (انظر مقدمة ص 191-196، وأبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ج 1 ص 55-65، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1969م)

⁷ سنوسع الكلام عن الفرق الإسلامية في ثنايا البحث بإذن الله تعالى.

أدركوا ضرورة إيجاد نظرية جديدة وفي نفس الوقت فعالة تسمح لهم بتدعيم ادعاءاتهم
تدعيما علميا وعمليا في مقابل كافة النظريات المذكورة.

وعليه، أحس الأمويون بضرورة بدء تفخيم شخصية الخليفة، وإحاطة منصبه بشيء من
القداسة، ورفع الأمر - إلى حد معين - إلى إرادة الله تعالى بحيث أنه لا تتاح للناس فرصة
ولا مجال لمحاسبة الخليفة وآله كما كان دأبهم مع بعض الخلفاء الراشدين مما اشتعلت الفتن
وسفكت دماء المسلمين. بيد أن بعض الحكام الأمويين، ولا سيما ممن توالوا على الخلافة
من بعد معاوية، وسعوا تحت وطأة نشاط وديناميكية المعارضة دائرة استخدام هذه الخواطر
والمفاهيم الحساسة، كما أضافوا لها وزنا جديدا لحد أن النظرية الأموية في الخلافة
أصبحت، في وجهة نظر كثير من الناس، مشاهمة من بعض النواحي لما ذهب إليه الفرقة
الكلامية الجبرية⁸ من الاعتقادات الباطلة.⁹

واحتضن الأمويون هذه الاعتقادات في أيام دولتهم المبكرة وظلوا يؤمنون بها
ويروجونها إلى أواخر أيامهم. وكان معاوية بن أبي سفيان أول من مال منهم إليها وبشر
بها. فهو يقول لأهل الكوفة حين دخل بلدهم سنة 41هـ/661م معلنا أن الله تعالى أسبغ
عليه الخلافة وهم كارهون: "قاتلتكم لأتأمركم عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم
كارهون".¹⁰

ويقول في بعض كلامه معلنا بأن الله تعالى أعطى له ولمن معه الخلافة (الملك): "إنه
ملك آتانا الله".¹¹

⁸ الجبر يعني نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى إذ العبد لا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا
إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه. (أنظر العميد عبد الرزاق محمد أسود: المدخل إلى دراسة الأدبسان والمذاهب ج2
ص169، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1981م) سنفصل الحديث عن الفرق الإسلامية ومنها الجبرية وفي مقابلتها القدرية في
فصلنا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعبوية والزندقة".

⁹ الدكتور حسين عطوان: الأمويون والخلافة ص41، دار الجليل، بيروت، 1986م.

¹⁰ البداية والنهاية ج8 ص131.

¹¹ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص334.

ويقول زياد ابن أبيه¹² (ت53هـ/672م) في إحدى خطبه لأهل الأقاليم سنة

45هـ/665م، مصرحاً بأن الله اختار الأمويين للخلافة وأنهم يسوسونهم بسلطانه ويتصرفون وفق إرادته وتوقيه: "أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا".¹³

ويقول الضحاك بن قيس الفهري¹⁴ (ت65هـ/684م) لما رفض العراقيون دعوة معاوية لعقد العهد لابنه يزيد، ولم يرفضوها إلا لأجل حبهم الحسن بن علي: "ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه! هيهات لا تورث الخلافة عن كلاله ويحجب غير الذكر العصبه".¹⁵

ويقول أيضاً يزيد بن معاوية¹⁶ (ت64هـ/683م) بأن الله قدر الخلافة لأبيه ثم لنفسه من بعده: "إن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له... وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه".¹⁷

ويقول روح بن زنباع الجذامي¹⁸ (ت84هـ/703م) لأهل المدينة لما تأخروا عن بيعه يزيد بن معاوية: "إنا لا ندعوكم إلى لحم وجذام وقلب ولكننا ندعوكم إلى قریش ومن جعل الله له هذا الأمر واختصه به، وهو يزيد بن معاوية".¹⁹

¹² أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة. من أهل الطائف. أدرك النبي ولم يره. أسلم في عهد أبي بكر الصديق. (معجم الأعلام ص284)

¹³ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين ج2 ص49، تحقيق حسن السندي، مطبعة الرحمانية، مصر، 1932م.

¹⁴ سيد بن فهر في عصره. أحد الولاة الشجعان. (الأعلام ج3 ص215)

¹⁵ الإمامة والسياسة ج1 ص169، مكتبة مصطفى البالي الحلبي وأولاده، مصر، 1969م.

¹⁶ ثاني خلفاء الدولة الأموية. تولى أمور المسلمين من سنة 60هـ/679م إلى 63هـ/682م. (الفخري في الآداب السلطانية ص113)

¹⁷ الإمامة والسياسة ج1 ص203.

¹⁸ أمير فلسطين، وسيد البمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها. (معجم الأعلام ص275)

¹⁹ البيان والتبيين ج1 ص300.

ونقل البلاذري²⁰ (ت279هـ/892م) أن عبد الملك بن مروان عندما قتل مصعب بن الزبير²¹ (ت71هـ/690م) ودخل الكوفة فأخذ البيعة من أهلها ثم عزم على الرجوع إلى الشام، أوصاهم أن يطيعوه لأنه ولي الله على الناس إذ يقول: " قالوا: لما أراد عبد الملك الشخصوص إلى الشام خطب الناس فعظم عليهم حق السلطان، وقال لهم: هو ظل الله في الأرض، وحثهم على الطاعة والجماعة"²².

ويقول الحجاج بن يوسف الثقفي للعراقيين جاهرا بأن عبد الملك بن مروان خليفة الله في الأرض ووصيه على الناس: "إن أمير المؤمنين استخلفه الله في بلاده وارتضاه إماما على بلاده". كما أشار في إحدى رسائله إليه بأنه ظل الله في الأرض وأن الله يحيطه بعنايته.²³

ويقول عمر بن هبيرة الفزاري²⁴ (ت110هـ/728م) لزعامة وسيادة علماء التابعين الحسن البصري²⁵ (ت110هـ/728م) ومحمد بن سيرين²⁶ (ت110هـ/728م) وعامر بن شراحيل الشعبي²⁷ (ت104هـ/722م) بعد أن عين واليا على العراق وخرسان مصرحا بأن الله تعالى قدر الخلافة ليزيد بن عبد الملك²⁸ (ت105هـ/723م)، وأمر بالانصياع له والعمل بما يريده: " إن يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عبادته، وأخذ ميثاقهم بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون يكتب إلي بالأمر من أموره فأنفذه وأقلده ما تقلده من ذلك"²⁹.

²⁰ مورخ، جغرافي، نسابي، له شعر. نسبته إلى حب البلاد. (معجم الأعلام ص83)

²¹ أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام. ولي إمرة العراقيين لأخيه عبد الله ابن الزبير حتى قتله عبد الملك. (البداية والنهاية ج3 ص321)

²² أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص354 ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، بيروت، 1978م.

²³ أحمد بن محمد ابن عبد ربه: العقد الفريد ج5 ص25 ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983 م .

²⁴ أمير، من الدهاة الشجعان. (الأعلام ج5 ص68)

²⁵ الإمام الفقيه المشهور. أحد التابعين الكبار الأجلء علما عملا وإخلاصا. (البداية والنهاية ج9 ص280)

²⁶ تابعي حليل، إمام، حافظ. قد روى أحاديث كثيرة من مجموعة من الصحابة. (البداية والنهاية ج9 ص286)

²⁷ تابعي حليل، إمام، حافظ. علامة أهل الكوفة. (الأعلام ج3 ص251)

²⁸ أحد خلفاء الدولة الأموية. تولى أمور المسلمين من سنة 101هـ/719م إلى 105هـ/723م. (تاريخ خليفة بن خياط ص213)

²⁹ مروج الذهب ج3 ص212.

وهكذا توالت الشخصيات والأقوال التي دارت حول محور واحد وهو تطوير نظرية جديدة للخلافة حتى لا يسمح للناس ومن ضمنهم العلماء بالتدخل الدائم في النقاش عن الأحقية والأفضلية في الخلافة. وللوليد بن يزيد³⁰ (ت 126هـ/743م) رسالة طويلة في البيعة لولديه بولاية العهد³¹ حيث قدم لنا نظرية الأمويين الكاملة في الخلافة. وهي وثيقة مهمة لها قيمة تاريخية بالغة، لأنه شرح فيها نظرية قومه في الخلافة شرحا مفصلا ودقيقا. كما نستطيع أن ندرك نسيبا أسباب تأسيسها وإطلاقها ومدى اللجوء إلى القواعد الإسلامية الصافية لأجل تحويلها وإخضاعها لمتطلبات السلطة والسياسة.

وقد تحدث في صدرها عن الإسلام والرسول، وانتهاء النبوة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عرض نظريتهم في الخلافة عرضا واسعا، فهو يؤمن كل الإيمان بمذهب الجبر في الخلافة وما تعلق به الأمويون من أن الله تعالى ولاهم أمر المسلمين، ويتأثر ما أضفوه على أنفسهم من جلالة وقداصة وما زعموه من أنهم ظل الله في الأرض وسلطانه على الناس. وكذلك يعتقد أن الله اختار الخلفاء بعد وفاة الرسول صيانة للإسلام وحماية للمسلمين، وهداهم وسددهم بتوقيه وأعانهم وأيدهم بنصره، وأمر المسلمين بالإذعان لهم وحذرهم من الخروج عليهم، فلم يشب عليهم واثب ولم يعاندهم معاند إلا صرعه الله تعالى، ومن عصاهم عصى الله تعالى.

ثم تحدث عن نظام ولاية العهد ووراثة الخلافة فذكر أن الله تعالى أرشد المسلمين إليه بعد خلافته التي اصطفى الخلفاء لها وبوأهم إياها. فهو ينوه بما لنظام ولاية العهد من قيمة كبيرة، ويشيد بمعاوية بن أبي سفيان لأنه ابتكره وقرره للأمويين، ويرى أن الله رضي عنه لأنه اخترعه وشرعه للمسلمين، ويخوف من الممارسة فيه، ويعلن أن الاتفاق عليه والاعتقاد به جزء من الإسلام ودليل على الإخلاص في الإيمان وشاهد على الصلاح في العمل. وصرح أن من صوبه ونصره سلم لإرادة الله تعالى وفاز برضوانه، وأن من أنكره خرج على مشيئة الله وكذب بقضائه وبأه بغضبه.

³⁰ أحد خلفاء الدولة الأموية. تولى أمور المسلمين من سنة 125هـ/742م إلى 126هـ/743م. (البداية والنهاية ج 10 ص 3)

³¹ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 219-221.

وهو يشير إلى أنه مهتم جدا بذلك العهد وشغل به منذ قيامه بالخلافة، وأنه استخار الله تعالى فيه فألهمه أن يبايع به لولديه حتى يعرف المسلمون موضع الأمر ومستقر الخلافة، فتطمئن قلوبهم في يومهم وحاضرهم وتستبشر نفوسهم بغدهم ومصيرهم وتأتلف كلمتهم وتتنظم جماعتهم بعد وفاته.

فكل ما يتصل بخلافة الأمويين عنده إنما هو بإرادة الله تعالى ومشيتته، فهو الذي أعطاهم الخلافة وثبت سلطاتهم ورعى ملكهم. وهو الذي هداهم إلى تعيين أولياء عهودهم ليستقر أمرهم ويستمر حكمهم.³²

واستظهر الشعراء الموالون للأمويين نظريتهم هذه استظهارا دقيقا، واتخذوها أساسا لتصويب حقهم في الملك والتوسل إليهم. واستكثروا من الاحتجاج له والدفاع عنه استكثارا شديدا ومن أشهر الشعراء الذين أسهموا كثيرا في ذلك حرير (ت110هـ/728م) والفرزدق³⁴ (ت110هـ/728م).³⁵

كان نظام الحكم عند بني أمية يتألف من ركنين: الخلافة وولاية العهد. ومن المعلوم أنهم حصروا الخلافة في أسرهم وجعلوها ملكا وتداولوها بعقد بعضهم لبعض. ولم يخرج من معتقداتهم السياسية إلا نفر قليل منهم،³⁶ ولكنهم لم يستطيعوا تحويل الخلافة إلى

³² أنظر: الأمويون والخلافة ص26-29.

³³ هو حرير بن الخطفي ويقال ابن عطية بن الخطفي. شاعر مشهور في الدولة الأموية. كان يدعّم الدولة الأموية وحكامها من خلال شعره. (البداية والنهاية ج9 ص271)

³⁴ هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناحة بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي البصري الشاعر المشهور في الدولة الأموية والملقب بالفرزدق. كان يدعّم الأمويين وسياستهم من خلال شعره. (البداية والنهاية ج9 ص277)

³⁵ الدكتور حسين عطوان: الشورى في العهد الأموي ص43، دار الجيل، بيروت، 1990م.

³⁶ لقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول حينما يرى أبا القاسم بن محمد بن أبي بكر (ت107هـ/725م): "لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخلافة". وقال ابن خلدون تعليقا على ذلك: "ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحسل والعقد، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لألا تقع الفرقة". (أنظر المقدمة ص206)

غيرهم من صلحاء المسلمين وأتقيائهم. فأبطلوا بذلك حق الأكفاء من أبناء الأمة في الخلافة، وعطلوا مبدأ الشورى العامة فيها.³⁷

3) الأمويون وولاية العهد

واهتم بنو أمية بولاية العهد اهتماما كبيرا وحرصوا على أن يكون خلفاء المستقبل من خيرة رجائهم. ومن أجل ذلك احتفظوا بنوع من الشورى الخاصة في اختيارهم، إذ كانوا يستشيرون بعض ثقاتهم من سادة أهل الشام وقادتهم يرشحون لولاية العهد والقيام بالخلافة من بعدهم. فكلما قضت الضرورة أن يستشيروا في أمر من الأمور دعوا أحب الناس إليهم من أهل بيتهم، أو أوثقهم عندهم من القوامين على دواوينهم والمشرفين على شؤونهم، أو أخلصهم لهم من وجوه أهل الشام وأشرفهم، فاستشاروا بعضهم فيه دون رسم مقرر يسرون عليه أو نظام محدد يلتزمون به.³⁸

ولعل أفضل تصوير لما تقدم بيعة معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد لأنها من أخطر الأحداث السياسية في تاريخ الأمة الإسلامية. وقد عمل معاوية في أول الأمر على إقناع الناس بفكرة ولاية العهد. فلما تبين له أنهم يقبلونها ولا ينكرونها انتقل لإقناعهم بالبيعة. فعارض أبناء الصحابة من أهل المدينة دعوته إلى استخلافه وقاوموا رغبته أشد المقاومة. فلم يتعجل في تعيينه بل تأنى فيه، وجعل يوطئ له بالتدريج. فأخذ له البيعة من أهل الشام ثم طلب من أهل المدينة أن يبايعوا له فاستنكف أبناء الصحابة من بيعته مرة ثانية.³⁹ فقرر أن يقابلهم ويناقشهم فذهب إلى المدينة وحاورهم وجادلهم فلم يستجيبوا له واقترحوا عليه أن يرد الأمر إلى الأمة لترى فيه رأيها وتختار خليفتها بنفسها، فتركهم ورجع إلى الشام.⁴⁰

³⁷ الشورى في العهد الأموي ص 354.

³⁸ أنظر الإمامة والسياسة ج 1 ص 165، والعقد الفريد ج 4 ص 369، والبدابة والنهاية ج 8 ص 80.

³⁹ الإمامة والسياسة ج 1 ص 177.

⁴⁰ نفس المرجع ج 1 ص 172.

ثم جعل معاوية يتأتى لبلوغ ما عزم عليه بالحجة والاستمالة والحيلة.⁴¹ ولم يزل يفعل ذلك مدة طويلة دون أن يتمكن من أخذ البيعة لابنه من غير أهل الشام. فاستدعى وفوداً من جميع الأمصار فشاورهم وناظرهم في الأمر وظفر بموافقة وفد أهل العراق ووفد أهل مصر ووفد أهل الجزيرة على مبايعته فضلاً عن موافقة أهل الشام. فلما تم له ذلك أرسل إلى أهل المدينة يدعوهم إلى البيعة لابنه فأبى أبناء الصحابة ذلك دون أي تردد.⁴² فأهملهم ثلاث سنوات ثم سار إليهم في آخر خلافته ولكنهم رحلوا إلى مكة ولحق بهم فلقبهم وأحسن إليهم وعرض عليهم الأمر مرة ثانية ووعدهم أن يصدع ابنه بمشورتهم وينصاع لإرادتهم. فأعرضوا عما مناهم به ورفضوا ما ضمنه لهم، وألزموه أن يتبع إحدى الطرق التي اتفقت عليها الأمة في اختيار الخليفة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ولم يسوغوا له أن يتعدها ولا أن يتدع سواها.⁴³ فلما تمسكوا بموقفهم ولم يتزحزحوا عنه كف عن ترغيبهم وأخذ في ترهيبهم وأتهمهم بأنهم أهل خلاف وشقاق لأنهم أبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه أكثر أهل الأمصار من الطاعة له والبيعة لابنه. وأسكتهم بالقوة وانتزع البيعة منهم ومن أهل مكة والمدينة بالخدعة.⁴⁴

لقد وعت القيادة العلمية أن بيعة معاوية لابنه بولاية الحكم دون أن يأخذ بنظر الاعتبار آراء المسلمين وخاصة قيادتهم العلمية ستسهم في المستقبل في إماتة مفهوم الشورى والانتخاب، ذلك المفهوم الذي يضمن الحيوية والتقدم للأمة الإسلامية في كافة ساحات وأطر الحياة في كل مكان وزمان، وستسهم في المقابل في سنن غير إسلامية أشبه بسنن الأقوام الضالة الأخرى غير الإسلامية التي جاء الإسلام في حقيقة الأمر لأجل استئصالها وإرساء القواعد الربانية الفطرية الصحيحة مقامها. على أنه يلاحظ أن فترة الخلفاء الراشدين تبنت مفهوم الشورى والاختيار كطريق للوصول إلى الحكم، لكن دون أسلوب معين ودون أن يستقر على نمط معين، من حيث تطرق معاوية إلى تسويغ نيته

⁴¹ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص303، العقد الفريد ج4 ص368.

⁴² العقد الفريد ج4 ص37.

⁴³ تاريخ حليفة بن حياط ص131.

⁴⁴ نفس المرجع ص131-132.

مدعيا أنهم صنعوا ما رأوه مصلحة وخيرا للمسلمين في وقتهم آخذين بعين الاعتبار الظروف السائدة في الدولة، وعليه، فهو سيبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من التنازع والتباغض والاختلاف، ونظرا لهم بعين الإنصاف. ولكن، لم تكن القيادة العلمية تظمن إلى تصرف معاوية، حيث إنه بلا مرء تقليل من نطاق مفهوم الشورى والاختيار الحر، ثم بعد ذلك إهانة لبعض جوانب مفهوم البيعة الشاملة الدالة على رضی الجماعة اللازمة لسلامة الخلافة، مما يحتمل أن يؤثر تأثيرا سلبيا على مستقبل مؤسسة الخلافة، وعلى مستقبل التطور الحضاري للأمة الإسلامية.

عن درجة خطورة تغيير القاعدة السياسية التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم واتبعها الخلفاء الراشدون من بعده يعبر تعبيرا جميلا عالم ألماني (لا يذكر اسمه): "إنه كان ينبغي لنا أن نضع لمعاوية تمثالا من الذهب في عواصمنا لأنه لو لم يحول سلطة الخلافة عما وضعها عليه الشرع وجرى عليه الراشدون لملك العرب لأصبحت بلادنا كلها إسلامية عربية..."⁴⁵

أما الخلفاء الأمويون غير معاوية فإنهم لم يوسعوا قاعدة الشورى ودائرة استشارة العلماء والفقهاء في الأمور السياسية فحسب بل ضيقوها أشد التضييق حتى صار الخليفة يستشير الرجل من خاصته وأعوانه من أهل الشام دون غيرهم من أهل الأمصار الأخرى. وقل أن استشار بعضهم رجلين، كما ندر أن استشار أحدهم نفرا من الرجال والعلماء. ومن صنع ذلك عبد الملك بن مروان، فإنه استشار كاتبه محمد بن يزيد الأنصاري (ت134هـ/751م) فيمن يرشح لولاية العهد فسمى له ابنه الوليد (ت96هـ/714م) وسليمان (ت99هـ/717م). ومنهم سليمان بن عبد الملك، فإنه لما مرض وأحس بالموت شاور رجاء بن حيوة الكندي (ت112هـ/730م) فيمن يوليه الأمر من بعده. ومنهم يزيد بن عبد الملك، فإنه استشار سعيد بن بيهس بن صهيب الجرمي الداراني المدمشقي

⁴⁵ الخلافة ص43.

(ت127هـ/744م) في عقد العهد لولديه: الحكم وعثمان، فنهاه عن ذلك لصغرهما، فأنكر ذلك وسخط عليه وسجنه فهلك في السجن⁴⁶

4) عمر بن عبد العزيز⁴⁷ (ت101هـ/719م) والخلافة

في سياق حديثنا عن خلفاء العصر الأموي وعلاقتهم مع العلماء بطبيعة الحال نستثني عمر بن عبد العزيز لأنه لم يسلك مسلك متقدميه من بني أمية، بل قام بإصلاحات عامة امتدت إلى كافة مجالات الحياة. وكان عهده عهد العلماء والفقهاء خاصة، فإنه كان يشاورهم ويمضي الأمور برأيهم. قال ابن الأثير⁴⁸ (ت630هـ/1232م): "لما ولي عمر بن عبد العزيز انقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا: لا يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله".⁴⁹ ونوه الشعراء بتقريبه لأهل الصلاح والورع، واستنصاحه لهم واحتنابه لذوي الفساد والسوء واحتجاباه عنهم.⁵⁰

لقد ظهرت نواة سياسة عمر هذه لما كان والياً بالمدينة إذ دخل عليه الناس فسلموا، فلما صلى الظهر دعا من فقهاء ومحدثي المدينة منهم: عروة بن الزبير (ت94هـ/712م)، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي (ت98هـ/716م)، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن عاظم المخزومي القرشي (ت94هـ/712م)، وسليمان بن يسار (ت107هـ/725م)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت107هـ/725م)، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت106هـ/724م)، وعبد الله بن عامر بن ربيعة (ت118هـ/736م)، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (ت99هـ/717م)، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "إني إنما دعوتكم لأمر تخرجون عليه،

⁴⁶ تاريخ الرسل والملوك ج6 ص415 و550. الكامل في التاريخ ج5 ص281

⁴⁷ تابعي حليل. أحد الخلفاء الأمويين المعروف بأمر المؤمنين. كان أعدهم وأحسنهم سلوكاً وأخلاقاً. تولى أمور المسلمين من سنة

99هـ/717م إلى 101هـ/719م. (الفجري في الآداب السلطانية ص129)

⁴⁸ مؤرخ إسلامي مشهور، صاحب الكامل في التاريخ. (الأعلام ج3 ص331)

⁴⁹ الكامل في التاريخ ج5 ص63.

⁵⁰ العقد الفريد ج2 ص91.

وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم. فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فاحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني". فخرجوا يجزونهم خيرا وافترقوا.⁵¹

وذكر أبو حنيفة الدينوري⁵² (ت282هـ/895م) أنه قال لهم: "اعلموا أني لست أقطع أمرا إلا برأيكم ومشورتكم أشيروا علي". قالوا: "نفعل أيها الأمير، جزيت على ما تنوي خير ما جزى مؤثر لمرضاة ربه"، ثم خرجوا.⁵³

وقال ابن كثير⁵⁴ (ت774هـ/1372م): "كان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه. وقد عين عشرة منهم وكان لا يقطع أمرا دونهم أو من حضر منهم،... وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب. وقد كان سعيد بن المسيب⁵⁵ (ت94هـ/712م) لا يأتي أحدا من الخلفاء وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة. ويروى عن إبراهيم بن أبي عبلة أنه قال: "قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره وقد ندمهم عمر يوما إلى رأي".⁵⁶

وبعد أن تولى منصب الخلافة سنة 99هـ/717م انفرد عمر بن عبد العزيز عن سائر خلفاء بني أمية بأنه كاتب العلماء والفقهاء من أهل الأمصار وسأهم الرأي والنصح. كما انفرد عنهم بأنه طلب من أحد حفدة عمر بن الخطاب أن يعث إليه بسيرته،⁵⁷ في حين أن بعض خلفاء بني أمية كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد (ت96هـ/714م) صدوا أهل

⁵¹ تاريخ الرسل والملوك ج6 ص427، وأنظر أيضا عن ذلك أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص65، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م.

⁵² مهندس، مؤرخ، نباطي. من نوابغ الدهر. (معجم الأعلام ص39)

⁵³ الأخبار الطوال ص326.

⁵⁴ مؤرخ ومفسر إسلامي مشهور. صاحب البداية والنهاية في التاريخ، وله تفسير القرآن الكريم. (الأعلام ج1 ص320)

⁵⁵ سيد التابعين في الحديث والفقهاء. أحد الفقهاء السبعة في المدينة. هو أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب حتى يقال له راوية عمر.

(معجم الأعلام ص306)

⁵⁶ البداية والنهاية ج9 ص194، وأنظر أيضا أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي: سراج الملوك ج1 ص124، تحقيق محمد

فندي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994م.

⁵⁷ الطبقات الكبرى ج5 ص296.

الشام عن معرفة سيرة عمر بن الخطاب وحاولوا طمسها، لأنهم لم يكونوا يستطيعون العمل بمثلها، ولأنهم كانوا يخشون ثورة أهل الشام عليهم إن عرفوها وقارنوا بينها وبين سيرتهم.⁵⁸

لقد ظل عمر بن عبد العزيز طوال خلافته يكتب العلماء من أهل الأمصار المختلفة يستفتيهم في خلافة بني أمية ويطلب منهم أن يثيروا عليه بما يقوم سياستهم وينصف رعيته.

وهناك رسائل عديدة لعمر كان يرسلها إليهم. وممن كتب إليه من العلماء من أهل المدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب⁵⁹ (ت106هـ/724م)، ومحمد بن كعب القرظي⁶⁰ (ت108هـ/726م)، وأبو حازم سلمة بن دينار مولى بني مخزوم⁶¹ (ت140هـ/757م)، وسالم مولاة (ت106هـ/724م). ومن أهل البصرة الحسن البصري وخالد بن صفوان المنقري التميمي⁶² (ت133هـ/750م). ومن أهل الكوفة ثم من أهل الشام القاسم بن مخيمرة الهمداني⁶³ (ت100هـ/718م). ومن أهل اليمن طاووس بن كيسان الهمداني⁶⁴ (ت106هـ/724م).⁶⁵ ومن أهل الجزيرة الفراتية ميمون بن مهران مولى الأزدي⁶⁶ (ت117هـ/735م). ومن أهل الشام رجاء بن حيوة الكندي⁶⁷ (ت112هـ/730م).⁶⁸

⁵⁸ الشوري في العصر الأموي ص263.

⁵⁹ تابعي حليل. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. (شذرات الذهب ج1 ص133)

⁶⁰ فقيه، مفسر، صالح، عابد. له روايات وفيرة عن جماعة من الصحابة. (البداية والنهاية ج9 ص268)

⁶¹ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. (الأعلام ج3 ص113)

⁶² من فضحاء العرب المشهورين. (الأعلام ج2 ص296)

⁶³ معلم، من رجال الحديث. (الأعلام ج5 ص185)

⁶⁴ تابعي حليل. إمام في الفقه والتفسير. شيخ أهل اليمن. (البداية والنهاية ج9 ص244)

⁶⁵ أنظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ص100-113، وأيضاً محمد عبد الله بن عبد الحكيم: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه ص67-77، 86-89، 103-104، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، 1954م، ويوسف بن قيز سبط بسن الجوزي: المجلس الصالح والأبى الناصح ص221، تحقيق الدكتور فواز صالح فواز، رياض الريس، لندن، 1989م، وعلي بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج9 ص266، دار إحياء التراث العربي، دون سنة الطبعة، والبداية والنهاية ج9 ص193.

⁶⁶ فقيه، مفسر، من الفضاة. (الأعلام ج7 ص342)

⁶⁷ شيخ أهل الشام في عصره. (البداية والنهاية ج9 ص315)

⁶⁸ الطبقات الكبرى ج5 ص394 و395.

وقد أخذوا على من سبقه من خلفاء بني أمية تسرعهم في قتل المسلمين المعارضين لهم
بغير الحق، وإسرافهم في حباية الأموال وتصرفهم فيها. وأشاروا عليه أن يعاقب المذنبين
على قدر ذنوبهم، وأن يجمع المال من حله ويضعه في أهله، وأن يحكم بين الناس بالعدل.
فعمل عمر بن عبد العزيز بما أشاروا به عليه.

5) الأمويون والعلماء

على كل حال، نستطيع أن نقول أن العهد الأموي قد صبغ بالفعل بصبغة جديدة،
ولعل ذلك كان نتيجة لسياسة جديدة. إن التشريع الإسلامي قد رقى في هذه الظروف
الصعبة في المساجد وفي حلقات الدروس المستقلة عن الحكام. فلا نرى في دولتهم مثل أبي
يوسف في الدولة العباسية، يحميه الخلفاء ويؤيدونه في التشريع ويوثقون الصلة بينه وبينهم،
وبينه وبين سائر العلماء. ولا نرى من المشرعين من اتصل بالأمويين إلا قليلا كالإمام
الزهري⁶⁹ (ت 124هـ/741م).⁷⁰

وكذلك لم يهتم ولم يتصل الأمويون كثيرا برجال التشريع والعلماء على العموم، بل
ركز الخلفاء على النواحي السياسية، من إخماد الثورات الداخلية، والفتوحات الخارجية،
وتنظيم شؤون الدولة المالية وإلى غير ذلك.⁷¹ ولعل من أكثر البواعث احتمالا لهذه
السياسة توجيه الناس إلى مجالات أخرى وتشغيل باهم بها وألا يتاح لهم أن يتدبروا كثيرا
شؤون الدولة الداخلية ثم يزيدوا على ما كان يعاني منه الخلفاء من مشاكل على كافة
مستويات الدولة. والذين تفرغوا للعلم ظلوا يدرسون ويفتون، والذين عينوا قضاة ظلوا
متروكين يقضون بما يرون.

⁶⁹ تابعي حليل من أهل المدينة. أول من دون الحديث. أحد أكابر الحفاظ والفقهاء. (الأعلام ج 7 ص 97)
⁷⁰ أحمد أمين: فخر الإسلام ص 248، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، دون سنة الطبعة.
⁷¹ أنظر أحمد أمين: ضحى الإسلام ج 2 ص 162، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1974م.

لقد كان العلماء أحرارا في اجتهادهم لا تتدخل السلطة فيما بينهم من نزاع علمي (اجتهادي) ولا تقيد حريتهم في ذلك ما داموا بعيدين عن المسائل السياسية. فلهم أن يجتهدوا في غيرها ما يريدون، ولهم أن يستنبطوا الأحكام من مصادر التشريع كما يشاءون، وبأية منهجية يريدون. ولكن إذا تمت السلطة تدعيم سياستها بدعائم علمية سعت إلى الاستمالة واستخدام الحيل لتكسب قلوب المتقربين والمذبذبين الذين رأوا في العلم وسيلة للتقرب من السلطة والجاه والغنى.⁷² أما الذين أخلصوا في سبيلهم وصبروا وعارضوا سياسة حكامهم الظالمة ابتغاء مرضاة الله تعالى غير خائفين رهبتهم، فإنهم واجهوا محن شديدة ومؤلمة كانت في بعض الأحيان تؤدي إلى الموت.

وكان من العلماء من تطوع لتدعيم الدولة الأموية وسياستها مثل ابن شهاب الزهري، وعطاء بن أبي رباح⁷³ (ت114هـ/732م)، والأعرج عبد الرحمن بن هرمز⁷⁴

⁷² ويغتاب ما تقدم من محاولات معاوية بن أبي سفيان في استمالة، كسب وإغراء بعض العلماء البارزين أثناء الواقع مع علي بن أبي طالب، ثم لما أراد أن يعهد لابنه يزيد بولاية العهد، سأشهر هنا أيضا إلى بعض الأمثلة الأخرى، منها أن معاوية كتب إلى زياد بن أبيه أن يعث له خطباء أهل العراق ليغريهم ويقنعهم أن يدعوا الناس إلى الأمويين وفي نفس الوقت ينادوا ضد منافسيهم ومعارضهم. ومنها أن الحسن البصري (ت110هـ/728م)، كما يروي، كان يتكلم في شيء من القدر (وذلك يناقض ما كان يذهب الأمويون إليه من النظرية في الخلافة) ثم رجع عنه، فألق ذلك الأمويين وأرفقهم لدرجة أن الحاجب كتب إليه طالبا منه أن يوضح موقفه في القضية، وذلك خوفا من نفوذ الحسن البصري العظيم وقتد في الدولة الإسلامية. (أنظر أحمد بن يحيى من المرتضى: طبقات المعتزلة ص19-20، تحقيق سوسنة ديفلد-فلزر، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون سنة الطبعة، وأحمد بن يحيى من المرتضى: المنية والأمسل في شرح الملل والنحل ص133-134، تحقيق محمد حواد مشكور، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1979م، وأبو القاسم البلخي: فضل الاعتزال ص215-216، تحقيق فواد سيد، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، 1986م، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدهبوري: المعارف ص251، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، وكتاب المغن ص350، ودومنيك وحاتين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ترجمة حسني زينة، ج1 ص116، دار الحقيقة، الطبعة الأولى، 1980م) ويروي أيضا أن الأمويين أرادوا أن يولوا بعض العلماء الكبار القضاء، منهم الإمام أبو حنيفة. ويروي أن أبا خالد يزيد بن عمر بن هبيرة (ت132هـ/749م)، والي مروان بن محمد بن مروان (ت132هـ/749م) على العراق، كلم أبا حنيفة أن يلي قضاء الكوفة فأبى عليه، فغضبه مائة سوط وعشرة أسواط وهو على الامتناع، فلما رأى ذلك حلى سبيله. (أنظر الطبقات السنية في تراجم الحنفية ج1 ص103-104، وأبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج13 ص326-327، دار الكتاب العربي، بيروت، دون سنة الطبعة)

ويروي أن عبد الملك بن مروان أراد أن يجذب سيد التابعين سعيد بن المسيب (ت94هـ/712م) إلى صفوفه، ومن الخطوات التي خطتها نحو هذا الهدف إرادته أن يزوج ابته لابنه الوليد حين استخلفه، فرفض سعيد بن المسيب. (أنظر وفيات الأعيان ج2 ص117، وحلية الأولياء ج2 ص167)

⁷³ تابعي، من أئمة الفقهاء. (البداية والنهاية ج9 ص317)

⁷⁴ حافظ، قارئ، من أهل المدينة. (الأعلام ج3 ص340)

(ت117هـ/735م)، وسليمان بن يسار⁷⁵ (ت107هـ/725م) وغيرهم. إنهم قد تعاملوا مع الحكام الأمويين تعاملًا حسنًا لأن ذلك كان - بموجب اجتهادهم - أقرب إلى الصواب والحق وأبعد عن الضلال والباطل، وأدعى للسلامة والعافية وأنفى للاختلاف والفرقة. ولكن، لأجل التصرفات الظالمة على يد كثير من الحكام لم يثبت معظم هؤلاء العلماء أمام ضربات الطعون والانتقادات الموجهة ضدهم. ويقول في هذا الصدد الإمام جعفر الصادق⁷⁶ (ت148هـ/765م) الذي عاصر نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية وما وقع فيها من الأحداث في مجال كل من السياسة والعلم: "إذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا للسلطين فاقمهم..."⁷⁷ وقال علي بن حوشب الفزاري (ت حول 150هـ/767م) عن الإمام الزهري: "أي رجل هو لو لا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك."⁷⁸

وأتمم الإمام الزهري بأن عبد الملك بن مروان قد استعان به لما ضح المسلمون من منعهم عن الحج إلى بيت الله الحرام عندما كانت الحجاز تحت سيطرة عبد الله بن الزبير⁷⁹ (ت73هـ/692م) فخاف ألا يأخذهم فوضع له الزهري الحديث المعروف: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس،⁸⁰ ونسبه إلى الرسول. ثم أضاف قائلاً: وهو (المسجد الأقصى) يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها لما صعد إلى

⁷⁵ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان من المتهندين في العبادة. له روايات كثيرة. (البداية والنهاية ج9 ص254)

⁷⁶ سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. كان من أحناء التابعين. لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. (معجم الأعلام ص169)

⁷⁷ عبد الرحمن الشراقي: شخصيات إسلامية: أئمة الفقه التسعة ص50، العصر الحديث، بيروت، الطبعة الثانية، 1985م.

⁷⁸ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء ج5 ص339، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985م، وشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تاريخ الإسلام ج8 ص245، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1991م.

⁷⁹ أول مولود بالمدينة بعد الهجرة. بويح له بالخلافة سنة 64هـ/683م عقب موت يزيد بن معاوية. حكم مصر والحجاز والعراق واليمن وخراسان وأكثر الشام. جعل قاعدة ملكه للمدينة. (البداية والنهاية ج8 ص337)

⁸⁰ هنا حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجمعة، رقم الحديث 1115، وفي صحيح مسلم هو في كتاب الحج ورقمه 2475، كما رواه غيرهما من أصحاب السنن.

السماء تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة.⁸¹

وكذلك أتمم الزهري بأنه روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "الصلاة في المسجد الأقصى تعدل ألف صلاة في غيره".⁸² وإلى غير ذلك من الأحاديث التي رواها في بيت المقدس ليكون في مرتبة مسجد النبي وبيت الله الحرام.

ويروى أيضا عن عبد الرزاق بن همام (ت211هـ/826م) أن الوليد بن إبراهيم الأموي (ت132هـ/749م) جاء إلى الزهري بصحيفة وضعها أمامه وطلب إليه أن يأذن بنشر أحاديث منها على أنه سمعها منه، فأجازها الزهري على ذلك من غير تردد كثير، وقال له من يستطيع أن يخبرك بما غيري.⁸³

إننا نرفض التهم السابقة وغيرها ضد الإمام الزهري لأجل الأسباب الآتية:

1) اتفق المحدثون على الحكم بصحة حديث "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..."، ولم ينفرد الإمام الزهري برواية هذا الحديث وحده بل روي من غير طريقه.⁸⁴

⁸¹ تاريخ يعقوبي ج2 ص261.

⁸² هاشم معروف الحسن: الموضوعات في الآثار والأخبار ص133، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1973م.

⁸³ نفس المرجع ص133.

⁸⁴ أنظر الروايات المختلفة لهذا الحديث في صحيح البخاري بشرح ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن بساز ج3 ص63 وج4 ص240، للطبعة السلفية، الروضة، القاهرة، 1380هـ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج9 ص104 و167-168، للطبعة المصرية، القاهرة، دون سنة الطبعة، وعبد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ج1 ص64، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1398هـ.

2، لو كان الزهري يضع الأحاديث لما خفي ذلك على المحدثين والفقهاء الذين كانوا يعاصرونه ولما عدلوه ووثقوه،⁸⁵ وهم الذين لم يجاملوا في السنة النبوية الشريفة أحدا ولم يخشوا في الحق لومة لائم.

3، إن الإمام الزهري من أجل وأبرز العلماء في التاريخ الإسلامي، فكيف منح له المسلمون هذه المرتبة من حيث العلم والأخلاق وقد كان يضع الأحاديث (إن صحت التهم)، وذلك تناقض واضح لا يقبله العقل السليم. هذا بالإضافة إلى أن الوضع في الحديث عملية خطيرة قد تؤدي إلى الكفر والزهري يعلم ذلك أحسن من غيره.

4، إن حديث "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..." رواه الزهري عن سعيد بن المسيب⁸⁶، وما كان لسعيد أن يسكت عن الزهري لو أنه وضع هذا الحديث وغيره على لسانه إرضاء لأهواء الأمويين، وهو الذي أودى من قبلهم، كما سنرى إن شاء الله تعالى. وقد توفي سعيد بن المسيب بعد مقتل عبد الله بن الزبير بعشرين سنة، فكيف سكت عن كل هذا طول هذه المدة، وهو سيد التابعين؟⁸⁷

وقد تختم على ارتغاء العلاقات بين الدين وكثير من الناس بصفة عامة وبين كثير من العلماء والحكام بصفة خاصة أن وضع واختلق عدد كبير من الأحاديث النبوية وكتب ونشر عما لا علاقة له بالحق، وبدأت تنتشر البدع والفساد العلمي وتهمين على عقول كثير من الناس وقلوبهم. فتداولت الأخبار عن حث النبي صلى الله عليه وسلم على سكت الشام وأن الله تعالى تكفل بمن سكنه من أهل الإسلام، وأن الشام صفوة الله في أرضه يسوق إليها صفوته من خلقه، وأن الإيمان يكون بالشام عند وقوع الفتن، والشام تكون

⁸⁵ أنظر في ذلك سير أعلام النبلاء ج5 ص326-350، وتاريخ الإسلام ج8 ص227-249، ووفيات الأعيان ج4 ص177، والبداهة ج9 ص354-362.

⁸⁶ أنظر سند الحديث في صحيح البخاري ج3 ص63، وصحيح مسلم ج9 ص167.

⁸⁷ الدكتور مصطفى السباعي: السنة ومكائنها في التشريع ص401، مطبعة للدين، مصر، الطبعة الأولى، 1961م، وحارث سليمان الضاري: الإمام الزهري وأثره في السنة ص463-465، مكتبة بسام، القاهرة، 1985م.

بقايا العرب عند حلول البلايا. وكذلك تآثرت الأخبار عن فضل دمشق في القرآن الكريم، وأن دمشق من أبواب الجنة، وأن أهل دمشق سيعرفون في الجنة بالثياب الخضراء، وأن مسجد دمشق صار ذا قيم وفضائل خاصة وإلى غير ذلك.⁸⁸

وعلى الرغم من كل هذا نلاحظ أن معظم العلماء في ذلك العصر اعترفوا بخلافة بني أمية وأفتوا بأنها خلافة شرعية. ويظهر أنهم فعلوا ذلك لأنه لا يصح الخروج عليهم لأن الأمة بايعت لهم ولأن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾.⁸⁹ ثم لأنه يجوز نظرياً أن يكون بعض الخلفاء من بني أمية لأن شرط النسب والقرشية تحقق فيهم. وأخيراً لأنه يجب الأخذ برأي الجماعة وهو أقرب إلى الصواب والحق وأبعد عن الضلال والباطل.

ومن كبار علماء الأمصار الذين دخلوا في طاعة الأمويين وأعطوهم بيعتهم بناء على الأسباب المذكورة عبد الله بن عباس⁹⁰ (ت 68هـ/687م)، ومحمد بن الحنفية⁹¹ (ت 81هـ/700م)، وعبد الله بن عمر⁹² (ت 74هـ/693م)، وعروة بن الزبير⁹³ (ت 94هـ/712م)، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وأبو سعيد الخدري⁹⁴

⁸⁸ أنظر أبو القاسم علي بن الحسن بن عبد الله ابن عساکر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج 1 ص 26-197، هذبه ورثه الشيخ عبد القادر بدران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987م، والبدایة والنهاية ج 9 ص 160 وما بعدها، وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ج 1 ص 307، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، وحلال الدين السيوطي: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج 1 ص 459 وما بعدها، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م. سورة النساء 59.

⁹⁰ ابن عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. لازم النبي في صغره لقرابته منه. لقبه الحمر والبحر لكثرة علمه. (شذرات الذهب ج 75ص)

⁹¹ هو محمد بن علي بن أبي طالب. أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام. أخو الحسين والحسن غير أن أمهما فاطمة الزهراء وأمس خولة بنت جعفر الحنفية. ينسب إليها مجيزاً له عنهما. (البدایة والنهاية ج 9 ص 40)

⁹² ابن عمر بن الخطاب. مفسر، فقيه، راوي الأحاديث الكثيرة من الصحابة. (البدایة والنهاية ج 9 ص 5)

⁹³ تابعي حليل، كثير الحديث، عالم مأمون ثبت. لم يدخل في شئ من الفتن. (البدایة والنهاية ج 9 ص 107)

⁹⁴ صحابي حليل من فقهاء الصحابة. شهد مع النبي إثني عشرة غزوة. روى أحاديث وفيرة. (البدایة والنهاية ج 9 ص 4)

(ت74هـ/693م) وغيرهم. أما علماء الشام فلم يتأخر أحد منهم عن بيعه الأمويين لأنهم كانوا أخلص شيعتهم وأصدقهم في نصرتهم وأحرصهم على دولتهم.

ومن الأمثلة التي استخرجنا منها اعتقادنا هذا أن عبد الله بن العباس كان بمكة لما توفي معاوية بن أبي سفيان فأمر من كان عنده من الناس بالسكينة ودعاهم إلى بيعه يزيد بن معاوية، ونصح للحسين بن علي أن يبقى في الحجاز ولا يسير إلى الكوفة ووعده أن يبايع له إذا اجتمع الناس عليه.⁹⁵

وأما موقفه من معارضة عبد الله بن الزبير فهو مشابه تماما لموقفه من معارضة الحسين بن علي. قال البلاذري: "قال أبو حمزة: قلت لابن عباس: إني بايعت ابن الزبير فأعطاني وحملني على فرس أفأقاتل معه؟ قال: لا تقاتل معه ورد عليه ما أعطاك واشتر بغلا أو بغلين وغلاما واغز المشركين فإن قتلت على ذلك كنت شهيدا إن شاء الله تعالى. قال فرددت على ابن الزبير ما أخذت منه".⁹⁶

وأشار محمد بن الحنفية على الحسين بن علي أن يبعث رسله إلى الناس فإن بايعوا له كان له ما أراد وإن اجتمعوا على غيره فصر وشكر.⁹⁷

وبالنسبة لعبد الله بن عمر فهو أيضا بايع يزيد بن معاوية ونصح للحسين بن علي وعبد الله بن الزبير بمبايعته وهما عن مخالفته حرصا على وحدة الأمة وخوفا من تفرقة كلمتها.⁹⁸

⁹⁵ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص343 و383.

⁹⁶ أنساب الأشراف ج5 ص196، والبداية والنهاية ج8 ص242.

⁹⁷ ابن أعمش الكوفي: كتاب الفتح ج5 ص30، طبع حيدرآباد الدكن بالهند، دون سنة الطبعة، والبداية والنهاية ج8 ص163 و242.

⁹⁸ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص343، الكامل في التاريخ ج4 ص357.

وكذلك عروة بن الزبير كان يرى في البداية أن الإمامة شورى بين قريش، شأنه في ذلك شأن أخيه عبد الله بن الزبير، ولكنه في النهاية تنازل عن ذلك الموقف وطلب من عبد الله أن يخلع نفسه ويباع عبد الملك بن مروان . فلما قضى الحجاج بن يوسف على عبد الله بن الزبير ذهب عروة إلى الشام وباع عبد الملك بن مروان.⁹⁹

ويروى أيضا أن سعيد بن المسيب ما أراد أن يشارك في التطورات السياسية التي عاصرها، وكذلك لم يهتم بالثائرين على الدولة الأموية، بل التزم المسجد ولم يخرج إلا قليلا وخاصة في أيام التوترات السياسية. ولقد قال مرة عن الحسين بن علي: "لو أن حسينا لم يخرج لكان خيرا له".¹⁰⁰

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن الزبير.¹⁰¹

أما الحسن البصري فقد أقر بخلافة بني أمية ونفر الناس من الالتحاق بالثائرين عليهم وحذرهم من المشاركة في الفتنة.¹⁰²

وكذلك كان شأن أبي سعيد الخدري.¹⁰³

ومع كل ذلك فإن العلماء ما رضوا كل الرضا بالدولة الأموية وخلفائها ولم يسكتوا عن الظلم والجرائم التي اقترفوها، وجهروا بأنهم أبطلوا مبدأ الشورى بين قريش، وأنكروا أيضا نظام ولاية العهد الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان. كل ذلك لأجل محاولة إصلاح الوضع العام أو لأجل وضع الأوزار عن أنفسهم التي أنقضت ظهورهم بصفتهم علماء وريثة الأنبياء. وهذه المعارضة قد كانت في بعض الأحيان تصطبغ بصبغة ثورة تهدف إلى

⁹⁹ كتاب الفتوح ج 6 ص 245 و 281.

¹⁰⁰ البداية والنهاية ج 8 ص 163.

¹⁰¹ تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 416.

¹⁰² كتاب الفتوح ج 7 ص 146، والبدية والنهاية ج 9 ص 229.

¹⁰³ البداية والنهاية ج 8 ص 163.

انقلاب شامل وإقامة سلطة جديدة. ونرى مثلاً أثناء خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس¹⁰⁴ (ت85هـ/704م) سنة 81هـ/700م، عامل الحجاج على سجستان¹⁰⁵، على الدولة الأموية خرج جماعة من قراء وفقهاء العراق معه، منهم عامر الشعبي، وسعيد بن جبير¹⁰⁶ (ت94هـ/712م)، وإبراهيم النخعي¹⁰⁷ (ت96هـ/714م) وغيرهم.¹⁰⁸

وقد نتج عن ذلك أن عددا كبيرا من العلماء واجهوا مخنا مؤلمة ووخيمة من قبل السلطة التي رأت فيهم خطرا كبيرا على مستقبل الدولة. وسأكتفي هنا بذكر محنة سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير حيث يتضح لنا بعد الفصل بين العلماء والحكام في الدولة الأموية. لقد ذاق سعيد بن المسيب تعذيب واضطهاد السلطة الأموية أثناء خلافة عبد الملك بن مروان.

إن هذا الخليفة أراد أن يجذب سيد التابعين إلى صفوفه وأول خطوة خطاها هي أن يزوج ابنته لابته الوليد حين استخلفه. ولكن سعيد رفض ذلك وزوج ابنته لطالب العلم في حلقتة بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.¹⁰⁹

ثم بعد ذلك حينما أطلق عبد الملك حملة لبيعة ابنه الوليد وسليمان كتب له هشام بن إسماعيل والي المدينة أن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة إلا سعيد بن المسيب فأمر له عبد الملك أن يجلد حنسين جلدة ويطوف به في أسواق المدينة.¹¹⁰

¹⁰⁴ أمر، من القادة الشجعان الدعاة. صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي. (البداية والنهاية ج9 ص37)

¹⁰⁵ منطقة قديمة في إيران وأفغانستان. وهي ناحية كبيرة وواسعة ذهب بعضهم إلى أن سجستان اسم للناحية وأن اسم مدينتها زرنج أرضها كلها رملة سبخة. (معجم البلدان ج3 ص190)

¹⁰⁶ تابعي حليل، مفسر، محدث، فقيه، حبشي الأصل. قتل الحجاج الثقفي. (البداية والنهاية ج9 ص101)

¹⁰⁷ من أكابر التابعين صلاحا، وصدق رواية وحفظا للحديث. (الأعلام ج1 ص80)

¹⁰⁸ تاريخ يعقوبي ج2 ص278.

¹⁰⁹ وفيات الأعيان ج2 ص117، وحلية الأولياء ج2 ص167.

¹¹⁰ وفيات الأعيان ج2 ص117، حلية الأولياء ج2 ص170، والبداية والنهاية ج9 ص64، وكتاب الغن ص307-308.

أما سعيد بن جبير فقد كانت محنته أشد من محنة سعيد بن المسيب. وكان خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري¹¹¹ (ت126هـ/743م) يومئذ واليا على مكة وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته فألقى القبض عليه واعتقله ثم أراد أن يتخلص منه لأنه يثق بأنه كان مناورا لحكم عبد الملك بن مروان. ولكن ما أراد أن يعدمه في مكة خوفا من مس شعور أهلها الذين يدينون بالولاء والاحترام لابن جبير. وكان ذلك سبب إرساله إلى الحجاج بن يوسف.¹¹²

وأول ما لاحظته الحجاج هو إلحاح ابن جبير على اعتقاداته الدينية والسياسية وعجزه عن إخضاعه إليه عن طريق النقاش بالأدلة الدينية والمنطقية. لذلك أراد الحجاج أن يغريه بالمال، ولكن ابن جبير رفض. ثم سلك الحجاج مسلكا آخر. فقد دعا بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي بكى ابن جبير. فقال: "ما يبكيك؟" فأجاب ابن جبير: "أما النفخ فذكرني يوما عظيما يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة".

وانتهى التعذيب والاضطهاد بقتل سعيد ابن جبير، وقبيل ذلك قال: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة... اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي".¹¹³

وهكذا انتهت محنة سعيد بن جبير باستشهاده وبقية الخن تصيب أمثاله من الذين أعرضوا عن السلطة لأجل إعراضها عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.

¹¹¹ أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأعوادهم. (الأعلام ج2 ص297)

¹¹² وفیات الأعيان ج2 ص112.

¹¹³ نفس المرجع ج2 ص112، حلبة الأولياء ج4 ص294-295، والبداية والنهاية ج9 ص101-103، كتاب الخن 232-249.

لقد وقع بنو أمية في خطأ حضاري وأقدموا على عمل خطير للغاية، إذ فشلوا في إيجاد تيار حضاري بعد أن اتسعت دولتهم. وكان بإمكانهم تحويل كل المناوئين إلى عاملين معهم في مجال نشر الدعوة الإسلامية والقضاء على الفرق والطوائف والشيع بالخوار والفكر ونشر الإسلام الصحيح إلى آفاق البلاد المفتوحة... أي تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة، والسياسة والفكر الإسلامي. فقد كان نشر الدعوة في هذا العهد، كما ذكرنا، عمل قواد وعلماء وأفراد متدينين أكثر منه عمل الحكومة.

وقد آذى الأمويون فكرة الجماعة التي أنشأها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الأمة التي وضعها المسلمون منذ اللحظات الأولى فوق كل الاعتبارات الأخرى.¹¹⁴ وفكرة الجماعة هي لكل المسلمين وتضم جميعهم، ولذلك لا يمكن توريثها ولا يستطيع أحد ادعاء تمثيلها دون غيره. وهذا ما فعله الأمويون، وهنا أهانوا شعور غيرهم في كافة أنحاء العالم الإسلامي وبالتالي تعرضوا لضربات فكرية وثورية شديدة واسعة المدى أدت حتما إلى اهتزاز ثم انهيار الدعائم التي قامت عليها دولتهم.

¹¹⁴ أنظر رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة ص134، دار اقرأ، الطبعة الأولى، 1984م.